شدت يداه انتباهه, منذ استيقظ من نومه نشيطا وافر القوة والنشاط.. وجد نفسه يطيل النظر إليهما, وعيناه تتلصصان, رغما عنه, تفك طلاسم الشقاء, وتستقرئ غيب حياة من الجد والكفاح سطرت على الكفين الخشنتين.. ودبيب خوف قديم يعيث في نفسه جيئة وذهابا, يهاجم أبوابا مغلقة, ويفتحها عنوة على مصراعيها..

الذكريات المؤسفة تتدفق من محبسها لأناس وقفوا بجواره كتفا بكتف على ذات "المنصة" يوما ما.. لمعة العرق على جباههم العريضة, تهدج أنفاسهم الملتهبة من شدة المجهود, "وقلة" الماء تتقاذفها أيديهم, تمصها شفاههم الجافة, وتختلط أنفاسهم المتسارعة عليها؛ فتروي نار ظمأهم, كل هذا يرتسم أمام ناظريه, ويكاد يجزم أنه الآن يراهم وتلفحه أنفاسهم..

هم اليوم جلساء الأطفال في البيوت, يشربون الشاي الثقيل بيد واحدة, وفي حالات أشد أسفاً من أيدي الآخرين.. يتيهون بعيونهم في العدم.. تمصمص نسائهم الشفاه, وهن يرمقن كُمَ الجلباب الخاوي من اليد الأخرى, وهبات الهواء تتلاعب به ذات اليمين وذات اليسار..

"كيف لريفي أن يحيا بلا يدين أو حتى يد واحدة؟!."

سؤال يلح على أذهانهم مع مطلع الشمس كل صباح, فيما يتوسدون مصاطب البيت الأمامية.. لحظتها تتداعى ذكرى يوما بعينه, يندلق من الذاكرة, يتجسد كأنه البارحة.. ذكرى مؤلمة نمت كنبت شيطاني هائش, ترعرع وطغى على من حوله من زهور الفرح وأيام الهناءة والسعادة, ولم يترك أي متنفسا لسواه.. وحفرت كذلك في ذاكرته مثلهم تماما, مع أن صرخات الألم والاستغاثة, والأصابع والأشلاء التي تطايرت يومها, والدماء التي تناثرت في المكان, ولوثت وجهه وملابسه, لم تكن له..

يومها تألم لهم, وكاد يغمى عليه وهو يجمع الأصابع المبتورة والأشلاء المتناثرة من أنياب "ماكينة الدراس" في خرقة قماش؛ ليدفنها بجوار المقابر..

ويجافيه النوم ليالي عديدة, وإذا أخذته غفوة؛ استيقظ فزعا على الأنياب الحادة, تجره من يديه رغما عنه إلى بطن الماكينة الحديدية, وتمزق لحمه وتطحن عظامه, ليخرج من الناحية الأخرى كومة من اللحم المفروم لا يُعرف لها قدم من رأس, تتربع على كوم التبن الكبير, فتبدو كما وجبة شهية لوحش ما..

وكلما رآهم في ذهابه وإيابه بعد ذلك أنَ قلبه وتوجع, ومصمص شفتيه الغليظتين, وتحسس -بلا شعور- يديه وأصابعه, وتغشى نفسه حالة من الحزن, ويظهر يوم الحادثة, متدليا, متأرجحا على خط الزمن, يأبى أن ينتظم في صفوف الأيام..

ولكنه في موسم الحصاد من كل عام يكره ذكراهم, ويعمل جاهدا على أن ينسى كل ماضيه بحلاوته وحنظله, وأن يبقى أجوفا خاويا كفزاعة حقل وحيدة بائسة, بلا مشاعر وبلا عقل, تحركها الريح فتؤدي عملها في صمت, بلا استحضار لماض أو استقراء لغيب, حتى تمر الأيام, ويخرج معافى بذراعين سليمتين, وأصابع لم ينتقص منها شيء..

يلتمس متخفيا طريقا آخر غير طريق بيوتهم, حيث يبكرون بالجلوس في مثل هذه الأيام على المصاطب الطينية, ينفخون دخان السجائر "اللف", ويتابعون حلقات الدخان وتهويماتها الحائرة في الهواء, قبل أن تتبدد كسراب مراوغ يلوح ويختفي.. وأسراب الجمال تتحرك أمامهم في رتابة, عائدة بأحمال القمح من الحقول, تضرب أخفافها الكبيرة بالأرض؛ فتثير ذرات التراب وتعكر الجو, فيما تستدعي ماضيهم وتجتر أيام فحولتهم من الذاكرة.. تلوي أعناقها الطويلة, تمدها باتجاههم, تواسيهم بهمهمتها الأعجمية, فتلمع عيونهم, ويهزون رؤوسهم لها ساهمين..

وتلاحقها العيون المتقدة بالحرارة, حتى تتخفف من أحمالها في الأجران الكبيرة, حيث تقبع "مكينات الدراس" فاغرة أفواهها, وقد جليت أسنانها, وبرقت

حوافها, وزيتت تروسها, وصارت على أهبة الاستعداد لتحيل كل شيء إلى فتات وهشيم.. تستوي في ذلك حزم القمح الجافة مع أيدي الرجال المعروقة, إذا ما زلت لأقل هفوة...

"ليت من صنعها مات كمدا قبل أن يفرغ من آلته الشيطانية.."

يردد قلبه مغتاظا هذه الجملة, ولكنه أبداً لا يقدر على البوح بها.. فكيف ل"أبي الرجال", بجسده الضخم, وعضلاته الهائلة, أن تظهر على وجهه الصارم أي بادرة خوف, وهو من اشتهر بين الأكتاف العريضة والشوارب الغليظة بأنه الأمهر في العمل على الماكينة الآثمة, وأنه لا يرهبها ولا تتحرك شعرة من رأسه, وهو واقف على منصتها يقذف في جوفها المظلم المخيف حزم القمح بيد ثابتة لا تعرف الخوف..

ويكتم خوفه مرغما, ويضطرم به صدره, وتداهمه القشعريرة الباردة وتجتاحه على فترات كهبات بخار مختنق, فيرتعد جسده الضخم, وترتعش أصابعه الممتلئة الطويلة رغما عنه, ويبدو من الوهلة الأولي لأقل العيون ملاحظة أنه خائف حتى النخاع.. ولكن من يخطر بباله أن "أبا الرجال" يخاف...

ومررا يفرك كفيه في محاولة لطرد الخوف الساقط في أمعائه, ويشعره برغبة لحوحة متبلدة في الحمام, وهو يعلم في نفسه أنها محاولة للهرب..

"وكيف الهرب؟!".

"وكيف ل"أبي الرجال" أن يهرب؟!".

"ومن يطعم الصغار إذا لم يمتد ذراعاه بطولهما في جوف الفم الهادر ليطعمه؟!".

نهض حانقا.. غادر المكان..

حاول مليا أن يفكر في شيء مبهج, غير أنه في كل مرة, كان يضبط عينيه تعد أصابعه, وعقله لا يكف عن رسم لوحات مأسوية, غارقة في لون أحمر قاني..

وعندما خطى خارجا من باب حجرته المتخمة بأثاث عرسه المتهالك, تذكر دبلة زواجه الفضية, فعاد ولبسها في بنصره الأيسر..

ومسرعا خرج ليلحق بالأنفار في الجرن..

ومر اليوم, وجاء المساء, وانتهت أزمة أسنان الماكينة الحادة, فلم تستطع أن تنل يديه بسوء, طوال يوم شاق من العمل.. دبلة زواجه الفضية هي ما اقتلعت بنصره الأيسر من جذوره, عندما علقت بأحد خطاطيف "المقطورة" المحملة بأجولة القمح, فيما يقفز من فوقها بكل قوته...